تحليل المظاهر الاقتصادية الصوتية في القراءات القرآنية الشاذة في محتسب ابن جني
رؤية لسانية معاصرة

د/ مُحَمَّد أحمد سامي أبو عيد
أستاذ مشارك في اللسانيات التطبيقية
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية إربد الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية

المُلخَص

قصدت هذه الدراسة تحليل المظاهر الاقتصادية الصوتية في القراءات القرآنية الشاذة في محتسب ابن جني، وذلك وفق رؤية لسانية معاصرة، اتكأت على اللسانيات الاقتصادية والصوتيات المعاصرة. ولأن مظاهر الاقتصاد كثيرة في اللغة، وتشمل كلَّ ما تنحو فيه اللغة نحو التخفيف وتوخي السهولة والجهد الأقل، راحت الدراسة تتقصى بالتحليل ظواهر لغوية صوتية، فيها مظاهر من الاقتصاد، من مثل: التخلص من التقاء الساكنين والتخفيف بالحذف واختزال الحركات، على أن تدرس تلك الظواهر، وفق ما عرض لها ابن جني في المحتسب.

هذا، وخلصت الدراسة إلى أن ما انطوت عليه تلك الظواهر من مظاهر اقتصادية، إنما يتحدد بأمرين أساسيين:

أ–استبدال مقطع بآخر (الاستبدال المقطعي).

ب–حذف مقطع (الحذف المقطعي).

هذا، وانطوت الدراسة على نتائج أخرى مهمة.

كلمات مفتاحية: (الاقتصاد، الصوت، القراءة القرآنية، المحتسب، ابن جني، اللسانيات).

مُقَدِمَةٌ :

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل المظاهر الاقتصادية الصوتية في القراءات القرآنية الشاذة، وفق ما جاءت عليه في كتاب: "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جني، وذلك بتناول ثلاثة من الظواهر اللغوية الصوتية، هي: التقاء الساكنين والحذف بالتخفيف واختزال الحركات، ولعل الدراسة في تناولها ذلك إنما تتفحص الجانب الاقتصادي من اللغة، بالاتكاء على المنهج الوصفي التحليلي، مع التنبه إلى أن الجانب الاقتصادي، ثمة، يشمل كلّ ما فيه توخٍ للسهولة والجهد الأقل، وعلى مستويات اللغة كافة، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية (غديري، ٢٠٠٣، ص٢) وحتى الخطابية.

وعلى ذلك، فإن كتاب المحتسب لابن جني يشمل كثيرًا من التوجيهات اللغوية للقراءات القرآنية الشاذة، وهي توجيهات انطوت على مظاهر اقتصادية توزعت على المستويات اللغوية المذكورة، أعلاه، مما جعل البحث في المظاهر الاقتصادية كافة في كتاب المحتسب أمرًا عسيرًا متشعبًا، وهو ما دفع الباحث الحالي لأن يحدد مادة التناول بثلاثة من الظواهر اللغوية، على المستوى الصوتي.

والتناول للقراءات القرآنية الشاذة في مثل هذه الدراسة إنما هو تناول لتلك القراءات، بما تمثله من ظواهر اللغة، بغض الطرف عما يجري من تكلم عن فصاحة القراءة وقبولها ورفضها، وعليه، تتعقب الدراسة الحالية توجيهات ابن جني للقراءات الشاذة بالتحليل، بما يفضي إلى الكشف عن المظاهر الاقتصادية الصوتية في تلك القراءات.

والدراسة، إذ تسعى لذلك كله، فإنها لتستعين بما توصلت إليه اللسانيات المعاصرة من نتائج في بابي:

- اللسانيات الاقتصادية.
- الصوتيات المعاصرة.

وأما اللسانيات الاقتصادية، فهي توجه لربط اللسانيات بالاقتصاد (كولماس، ٢٠٠٠م، ص٢٨١)، وعليه، يصبح التحليل اللساني للغة في هذا الباب تحليلًا اقتصاديًا، يقوم على تفحص عدد من الظواهر اللغوية، والكشف عن الجانب الاقتصادي فيها؛ والمقصود بالجانب الاقتصادي، ثمة، ما يمكن أن يقع من ميل في اللغة للسهولة والجهد الأقل، بما يحقق حدًا أعلى من الأثر بحد أدنى من الجهد، وبما يتناغم وميل البشر، عمومًا، إلى الاقتصاد في الجهد والوقت، ما أمكنهم ذلك (معايطة، ٢٠٠٨، ص١٨)، وكذلك يقع في باب اقتصاديات اللغة ذلك الميل للبساطة والوضوح في الاستعمال اللغوي (كولماس، ٢٠٠٠م، ص٣١٣؛ غديري، ٢٠٠٣، ص٥).

حاصل التكلم، هنا، أن التحليل اللساني الاقتصادي إنما يهدف إلى تتبع الحالات اللغوية التي يسعى الناطق اللغوي فيها إلى ترشيد الاستخدام للألفاظ والعبارات بالاستعمال الأكثر إيجازًا والأقل جهدًا وكلفة (التميمي، ٢٠٠٦، ص٢٧؛ أبو عيد، ٢٠٠٩، ص٦).

على أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن اللغة، وبحكم كونها قائمة على التخالف والثنائية (سوسير، ١٩٨٥، ص١٨٣)، لا تسير وهذا التوجه الاقتصادي، على نحو ثابت ونهائي، بل هي قد تنحو نحو الاقتصاد وتقليل الجهد في سياق، وتنحو نحو الصعوبة وبذل الجهد في سياق آخر (إستيتية، ٢٠٠٥، ص٦٢؛ معايطة، ٢٠٠٨، ص٩).

وعليه، تأتي مهمة هذه الدراسة في أن تكشف عن ميل اللغة نحو الاقتصاد، وبعبارة أخرى، فإن مهمة الدراسة تتجه لأن تكشف عن ميل القراءات القرآنية الشاذة نحو الأسهل والأقل جهدًا وكلفة، وذلك، وفق ما جاءت عليه تلك القراءات في محتسب ابن جني.

وأما الصوتيات المعاصرة، فتفيد الدراسة منها بانتحائها سمت التحليل الصوتي المعاصر لتلك المظاهر الاقتصادية في اللغة والقراءات، وذلك باستهداف المنطوق لا المكتوب من القراءات الشاذة بالتحليل، مع تنبه الدراسة إلى أن القراء لا ينظرون إلى التمثيل الكتابي في أدائهم القرآني؛ لكن التحليل اللغوي لتلك القراءات، عند أبي الفتح وعند غيره من اللغويين العرب، راح ينظر في ما خطه القلم من مكتوبات. فَبَعُد في ذلك عما ترتضيه الدراسات الصوتية المعاصرة من تناول للمنطوق (ماكارثي، ٢٠٠٥، ص١٢٦)، فحسب، ولعل أظهر ما تفيد منه الدراسة في هذا الباب:

- الفصل بين المنطوق والمكتوب.
- الكتابة الصوتية الدولية.
- تقسيم الأصوات إلى صوامت وحركات وأشباه حركات.
- تقسيم الحركات إلى طويلة وقصيرة.
- نظرية المقطع اللغوي.

على أية حال، فإن الدراسة، وفي قابل من الصفحات، تعرض لتلك المظاهر الاقتصادية في ثلاثة من الظواهر اللغوية الصوتية، وعلى النحو الآتي:

* **التخلص من التقاء الساكنين:**

ومما جاء به أبو الفتح على ذلك قراءة يحيى بن يعمر وابن أبي إسحق "اشتروِا الضلالة" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٤)، قال ابن جني: "في هذه الواو ثلاث لغات: الضم والكسر، وحكى أبو الحسن فيها الفتح "اشتروَا الضلالة"، ورويناه عن قطرب" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٤).

وابن جني، إذ يكشف عن مذاهب العرب في التخلص من التقاء الساكنين، فإنه ليفسر العلة في ظهور الحركات القصيرة على مواضع يفترض ظهور السكون عليها، بقوله: "والحركة في جميعها لسكون الواو وما بعدها" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٤)، ليقرر، بعد ذلك، أن الضم أفشى يليه الكسر ثم الفتح (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٤).

أما قوة الضم، ثمة، فلأنها واو جمع، فأرادوا الفرق بينها وبين واو "أو" و"لو"، لأن تلك مكسورة، نحو قول الله سبحانه: "لو اطلعت عليهم" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٥). وأما الفتح فأقلها، والعذر فيه خفة الفتحة مع ثقل الواو، ويوضِح ابن جني العلة في ذلك، بقوله: "... فإن الغرض من ذلك إنما هو التبلغ بالحركة لاضطرار الساكنين إليها، فإذا وقعت من أيّ أجناسها كانت أقنعت في ذلك، كما روينا عن قطرب من قراءة بعضهم "قَمَ الليل"، بالفتح، و"قلَ الحقُّ من ربكم" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٥٥).

إنَّ ما طرحه ابن جني من توجيه للقراءة القرآنية الشاذة، أعلاه، ليشير إلى جملة من الملاحظات:

- إنَّ توصيفَ الرجل لالتقاء الساكنين، هنا، لا يتفق وما تطرحه الصوتيات المعاصرة؛ إذ الالتقاء في القراءة "اشتروا الضلالة" هو التقاء بين الصامت و"الواو" شبه الحركة، وليس التقاء بين صامتين أو بين صوتين من جنس واحد.
- إنَّ فشو الضم دليل على ميل اللغة للتجانس؛ فالضمة من الواو، أو هي قريبة الشبه بها (أبو الهيجاء، ٢٠٠٥، ص٢-٤)، والتجانس، ثمة، إنما هو ميل نحو السهولة والتقليل من الجهد، وهو منحى اقتصادي ترجوه اللغة، أما الكسر فدليل على ميل اللغة نحو التخالف أو التضاد، إذ الكسر بالضد من الضم، وتوحي حركة الشفتين بذلك، فمع الضم تستدير الشفتان، وأما الكسر فتهبط الشفة السفلى فيه باتجاه الأسفل، وأما الفتح فطريق ثالث، إذ يقوم الفتح على ابتعاد الشفتين بعضها عن بعض (الخولي، ٢٠٠٠، ص٣٨-٣٩).
- لا علاقة لفشو الضمة بكون الواو في هذا الشاهد واو جمع، وليست واو "أو" أو "لو"، فالتفسير على هذا النحو جزء من

عمل النحويين العرب في النظر للتخالفات في البنيتين الكتابية واللغوية على أنها تخالفات تقع بغرض التمايز بين المتشابهات والبعد عن الالتباس، إن فشو الضمة، ثمة، وكما أوضحت الدراسة، أعلاه، بسببٍ من ميل اللغة نحو مزيد من الاقتصاد بالانسجام والمماثلة بين الضمة القصيرة والواو شبه الحركة، والمقصود بالمزيد من الاقتصاد أن اللغة في هذه القراءة حققت غرضين: التخلص من التقاء الصامت والواو شبه الحركة، والانسجام بين الواو والضمة، وهو ما يسوغ فشوها، أما الكسرة في "أو" و "لو" في القراءات القرآنية الأخرى، وفي قراءة (اشتروِا الضلالة)، فتمثل ميل اللغة نحو المخالفة لا المماثلة، وهو ما يوطد الرؤية اللسانية المعاصرة بكون اللغة بنية لا تقوم إلا على الثنائية والتضاد (الخولي، ٢٠٠٠، ص٦٤).

- إن ما جرى في القراءة القرآنية الشاذة "اشتروَا الضلالة" يمكننا أن نمثله بالكتابة الصوتية الدولية على النحو الآتي:

$^{\partial}$iStaraw $^{\partial}$iđđalaalata → $^{\partial}$iStarawađđa laalata

وبالتمثيل المقطعي، فإن ما جرى من تبدلات مقطعية كان على الشاكلة، أدناه:

اشترؤا الضلالة

↓

س ح س+ س ح+ س ح س + س ح س+ س ح+ س ح ح + س ح+ س ح

اشترَوا الضلالة

↓

س ح س+ س ح+ س ح + س ح س+ س ح+ س ح ح + س ح+ س ح

وعليه، يلحظ أن التغيير المقطعي تمثل في التحول من المقطع: (س ح س) وهو مقطع متوسط مغلق، إلى المقطع: (س ح)، وهو مقطع قصير مفتوح، وهو، كما يصفه علماء الأصوات المعاصرون، من أكثر المقاطع العربية تكرارًا وورودًا (عمر، ١٩٨٥، ص٢٦١)، إن ذلك التخلص من التقاء الصامت بشبه الحركة إنما كان في حقيقته تخلصًا من المقطع الأكثر صعوبة، بانتحاء سمت المقطع الأكثر خفة والأكثر شيوعًا في اللغة، وبذلك تكون القراءة الشاذة مثلت مظهراً اقتصاديًا تحول فيه الاستعمال اللغوي من الأكثر تكلفة إلى الأقل؛ باستبدال مقطع بآخر.

ولعل قراءة أخرى لأبي السَّمَّال: "قُ الليل"، تمثل الاتجاه ذاته نحو السهولة المقطعية والاقتصاد بالجهد، وهي عين ما روي عن روح عن أبي يقظان أنه قال: "سمعت أعرابيًا من بلعنبر يقرأ كذلك" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٥).

والعلة في التخلص من التقاء الساكنين بالضمة، كما يرى أبو الفتح، "... أن الغرض في هذه الحركة إنما التبلغ بها هربًا من اجتماع الساكنين، فبأي الحركات حركت أحدهما فقد وقع الغرض" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٥-٣٣٦)، غير أن أبا الفتح وبرغم تلمسه للعلة في هذه القراءة، استمر في وصفها باللغة الشاذة (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٦)، إذ التخلص من التقاء الساكنين، ثمة، إنما يكون بالكسر أكثر، قال ابن جني: "ولعمري إن الكسر أكثر، فأما ألا يجوز غيره فلا" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٦)، ولعل فشو الكسر، هنا، بخلاف فشو الضم في قراءة "اشتروُا الضلالة" إنما يؤكد ما ذهبت إليه الدراسة في موضع تحليلها للقراءة الشاذة "اشتروِا الضلالة"، من أن فشو الضم إنما جاء طلبًا للتجانس الصوتي، وهو ما عدته الدراسة، ثمة، توجهًا لمزيد من الاقتصاد.

إن ما يفهم من تحليل ابن جني للقراءة الشاذة المتقدمة: "قُ الليل"، أن الحركة هي أداة لبلوغ ما بعدها، وعليه، فليس، من أهمية لطبيعة الحركة التالية للميم، والتي تُخِلّص من المقطع غير المرغوب، بها، أو تُخَلِّص بها من التقاء الساكنين، لكن الأهمية تكمن في التخلص ذاته، وهو ما يمكن أن تمثله الدراسة بالكتابة الصوتية:

qum $^{\partial}$illayla → qumullayla

وبالتمثيل المقطعي، فإن ما جرى:

قُ الليل

↓

س ح س+ س ح س+ س ح س+ س ح

قُ الليل

↓

س ح+ س ح س+ س ح س+ س ح

إن ما تُفهِمُه الكتابة الصوتية، أن الناطق اللغوي تخلص من المقطع ذاته (س ح س) ليحل محله المقطع (س ح)، وهو انتحاء من اللغة للسهولة والجهد الأقل.

وعلى ذلك، يمكن الدراسة أن ترصد جملة الملاحظات الآتية:

- إن القول بأن ما جرى هو تخلص من التقاء الساكنين ليس إلا بدافع الكتابة ووهمها، فمصطلح "الساكن" مصطلح كتابي (أبو عيد، ١٩٩٨، ص٧٦)، ويقصد به أن ما تحت الحرف أو ما فوقه ليس الحركة، بل السكون، والسكون ليس إلا علامة كتابية لا يقابلها في النطق أي وجود صوتي، بل يقابلها عدمية للحركة، أو لنقل إنما يقابلها عدمية صوتية، فالسكون صفر، نطقيًا، لكنه يحفظ منزلة في الكتابة.

- إن مبدأ الفوقية والتحتية هو مبدأ كتابي، يتبع رسم الحروف والحركات في العربية، فالكتابة العربية رسمت الحركات القصيرة إما فوق الحرف وإما تحته، أما في المنطوق، فالحركات أصوات كالصوامت، وهي تجري على التوالي نفسه، وبالتتابع الزمني نفسه، أما المواقع المكانية للحركات في الكتابة، فلا تعبر عن تلك الحقيقة الصوتية.

- إن إطلاق "الساكن" على الصوت الصامت الذي لا تتلوه حركة، زمنيًا، ولا تعلوه أو تدنوه حركة، مكانيًا، إنما ينبع من

النظر للحركات القصيرة نظرة دونية، بوصف الحركات تتبع الصوامت (الحروف)، وليست مستقلة عنها.

- هذه النظرة الدونية تنبع من أن الأبجدية تمثل الأصوات الصوامت والحركات الطويلة وأشباه الحركات، وتصطلح عليها بالحروف، وأما الحركات القصيرة فلا تمثيل لها في الأبجدية، وهي على ذلك، ليست بحروف.

- إن ما جرى في القراءة الشاذة "قُمُ الليلَ" إنما هو تخلص من المقطع المغلق: (س ح س)، لتستبدل القراءة به المقطع القصير المفتوح الأسهل: (س ح)، وذلك، طلبًا للسهولة النطقية وتقليلًا للجهد، ونحوًا إلى الاقتصاد اللغوي.

- إن التخلص من التقاء الساكنين، بصرف النظر عن نوع الحركة (ضمة أو فتحة أو كسرة)، إنما ينجز مظهرًا اقتصاديًا واحدًا هو التخلص من المقطع الأصعب ليحل مكانه المقطع الأسهل، وهو، على ذلك، يحقق اقتصادًا في الجهد.

ولعل كثيرًا من الشواهد في كلام العرب تأتي على ذات الطريق من التخلص من المقطع الأصعب، ومن ذلك ما رواه ابن جني حكاية عن قطرب، قولهم: "قَمَ الليل" و"قُلَ الحقَّ" و"بَعَ الثوب" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٦).

ولعل ما جرى في تلك الشواهد تكشف عنه الكتابة الصوتية، على النحو الآتي:

بِعَ الثوب:

$$bi^{6}\partial a\theta\theta awba \rightarrow bi^{6}a\theta\theta awba$$

وبالتمثيل المقطعي، فإن ما جرى:

بِعْ الثوب

↓

س ح س+ س ح س+ س ح س+ س ح

بَعَ الثوب

↓

س ح+ س ح س+ س ح س+ س ح

فالمتخلص منه في هذا المثال هو المقطع ذاته (س ح س)، واستبدل به المقطع (س ح).

إنه، وبغض الطرف عن الحركة التي تم بها التخلص من المقطع المرغوب عنه، فقد أنجزت تلك الحركة ما هو اقتصادي بتقليل الجهد والكلفة والجنوح نحو الأسهل، وفي ذلك يقول أبو الفتح: "فمن كسر فعلى أصل الباب، ومن ضمَّ أو كسر، أيضًا، أتبع، ومن فتح فجنوحًا إلى خفة الفتح (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٣٦). وهو ما يوطد العلاقة، لغويًا، بين القراءات الشاذة والصحيحة، إذ هي في هذا الموطن وفي غيره من مواطن الدراسة تدور في فلك الظاهرة اللغوية الواحدة بمظاهرها الاقتصادية المتعددة.

* **الحذف بالتخفيف:**

يأتي التكلم عن الحذف، في المراجع اللسانية الاقتصادية، بوصفه مظهرًا مركزيًا للاقتصاد اللغوي (غديري، ٢٠٠٣، ص٦)، هذا ويتوزع الحذف بالتخفيف، وفق ما وقعت عليه الدراسة من شواهد على محورين:

أ- حذف أحد المدغمين:

ولعل مما جاء عليه من القراءات الشاذة في المحتسب، قراءة الزهري: "والدَّوابُ" خفيفة الباء، يقول ابن جني: "لا أعلم أحدًا خففها سواه" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٧٦).

جاء في توجيه القراءة عند أبي الفتح: "لعمري إن تخفيفها قليل وضعيف، قياسًا وسماعًا؛ أما القياس فلأن المدة الزائدة في الألف عوض عن اجتماع الساكنين، حتى كأن الألف حرف متحرك، وإذا كان كذلك، فكأنه لم يلتق ساكنان، ويدل على أن زيادة المد في الألف جارٍ مجرى تحريكها أنك لو أظهرت التضعيف، فقلت: دوابب، لقصرت الألف، وإذا أدغمت أتممت صدى الألف، فقلت دوابّ، فصارت تلك الزيادة في الصوت عوضًا عن تحريك الألف، أما السماع، فإنه لا يعرف منه التخفيف، لكن له من بعد ذلك ضرب من العذر، وذلك أنهم إذا كرهوا تضعيف الحرف، فقد يحذفون أحدهما" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٧٦-٧٧).

إن ما يستخلص من مجمل مقولات ابن جني بخصوص هذه القراءة:

- أن أبا الفتح يتعامل مع الحركات الطويلة ومنها الألف، على أنها كالصوامت تقبل التحريك، وتقبل التسكين، وهو ما قاد الرجل، بالضرورة، إلى النظر في ما حدث في قوله: "دوابّ"، على أنه اجتماع لساكنين، هما الألف والباء، وهو ما يتخالف والحقائق الصوتية المعاصرة، من أن ما يحدث في: "دوابُّ"، إنما هو اجتماع للحركة الطويلة (الألف) مع الباء.

- إذا كان الأمر كذلك فإن ما دفع الناطق اللغوي إلى الحذف بالتخفيف (حذف أحد المدغمين) ليس التخلص من التقاء الساكنين، بل هو ما تمثله الكتابة الصوتية فيما هو آتٍ:

dawaabbu → dawaabu

وبالتمثيل المقطعي:

دوابّ

↓

س ح+ س ح ح س+ س ح

دوابُ

↓

س ح+ س ح ح+ س ح

س ح ح س ← س ح ح

وعليه، فإن ما جرى أن القراءة تخلصت من المقطع الثاني المديد المغلق بأن استبدلت به مقطعًا مفتوحًا، وذلك بالهروب من الأصعب للأسهل نطقًا والأقل جهدًا.

وبالنظر إلى الحركات الطويلة على أنها حركات قصيرة أطيلت مدتها (الخولي، ١٩٩٠، ص٢٠٨)، فإن ما جرى ثمة يضارع ما جرى في حالات التخلص المقطعي السالفة الذكر في التخلص من التقاء الساكنين:

س ح س ← س ح

س ح ح س ← س ح ح

وعليه، فإن الظاهرتين اللغويتين الصوتيتين: التخلص من التقاء الساكنين وحذف أحد المدغمين تنطويان على مظهر اقتصادي واحد، وهو الاستبدال المقطعي، وهو استبدال يأتي طلبًا للسهولة النطقية والجهد الأقل، وجنوحًا نحو الاقتصاد اللغوي.

ومثل ذلك من الاقتصاد في التكلفة اللغوية ما جرى في قراءة أبي حيوة: "وعَزَني" مُخففة، قال أبو الفتح أصله: "عزَّني" غير أنه خفف الكلمة، فحذف الزاي الثانية أو الأولى" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٢٣٢).

إن ما جرى في هذه القراءة لتمثله الكتابة الصوتية على النحو الآتي:

^{6}azzanii → ^{6}azanii

وبالتمثيل المقطعي:

عزَّني

↓

س ح س+ س ح + س ح ح

عَزَني

↓

س ح+ س ح+ س ح ح

وعليه، فما جرى في القراءة هو ما جرى في كل المواضع السابقة، إنه استبدال مقطعي بالتخلص من المقطع المغلق واستبدالُ المقطع المفتوح به.

س ح س ← س ح

ولعل كثيرًا من الشواهد في اللغة والقراءات جاءت على هذا النحو من الحذف بالتخفيف، ومن ذلك ما جاء به الرضي الاستراباذي في شرح الشافية من قوله تعالى (الإستراباذي، ج٣، ١٩٨٢، ص٢٤٥):

- وقَرْنَ في بيوتكنَّ.

ومن الشواهد الشعرية قول أبي زبيد (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٧٦-٧٧):

- خلا أن العتاق من المطايا

أحَسْنَ به فهنَّ إليه شوسُ

يريد: أحسَسْنَ

$^{\partial}$aħsasna → $^{\partial}$aħasna

وبالتمثيل المقطعي:

أحسَسْنَ

↓

س ح س+ س ح س+ س ح

أَحَسْنَ

↓

س ح+ س ح س+ س ح

فالمقطع: س ح س ← س ح

ومثل ذلك قوله (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٧٦-٧٧):

قد كنتُ عندك حولًا لا تُرَوِّعني

فيه روائع من إنسٍ ولا جانِ

jaanni → Jaani

جانِّ

↓

س ح ح س+ س ح

جانِ

↓

س ح ح+ س ح

فالمقطع: س ح ح س ← س ح ح

ومثله ما أنشد أبو علي:

حتى إذا ما لم أجد غير الشَّرِ

كُنتُ امرءًا من مالك بن جعفر

أراد: غير الشرِّ، فحذف الراء الثانية (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٧٦-٧٧)، تخفيفًا.

وكان ابن جني أتى على الظاهرة ذاتها بأمثلة مما تكلم به العرب في نثرهم، ومن ذلك ما حكي عن ابن الأعرابي من قولهم: "ظنْتُ ذاك" أي ظَنَنْتُ، وقالوا في: "مَسَسْتُ: مَسْتُ، وفي ظَلَلْتُ: ظَلْتُ" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٢٣٢).

وكان الاستراباذي نصَّ على أن العلة في هذا الحذف كراهتهم لاجتماع المثلين، فحذفوا ما حقه الإدغام، أي أوَّل المثلين، لما تعذّر الإدغام، فإن كان ما قبل الأول ساكنًا أوجبوا نقل حركة الأول إليه، نحو: أحَسْنَ ويُحِسْنَ... وإن كان ما قبل الأول متحركًا جاز حذف حركة الأول ونقلها إلى ما قبله، إن كانت كسرة أو ضمة، قالوا: ظِلْتُ بفتح الفاء وكسرها، وكذا في لَبْتُ ولُبْتُ بفتح الفاء وضمها، وقد نص الاستراباذي، أيضًا، على أن الحذف عندهم في الماضي أكثر منه في المضارع والأمر (الإستراباذي، ١٩٨٢، ص٢٤٥).

إنه، وبغض الطرف عن موضع الخلاف بين الأقدمين في جواز بعض الحالات من الإدغام من عدم جوازها، فإن ما تقصد إليه الدراسة، ثمة، هو أن جميع تلك الحالات المشار إليها، إنما جاءت

شواهد على التخلص من المقطع المغلق المستبدل به مقطعٌ مفتوحٌ، أو أن الناطق اللغوي تخلص من أحد المقاطع في الكلمة بالحذف، وهو مظهر اقتصادي آخر يقف إزاء الاستبدال المقطعي، وفي الحالتين فإن ما جرى إنما هو مسألة مقطعية، تنحو، في ذلك، نحو الاقتصاد في الجهد والكلفة، ففي "ظَنْتُ" أو "ظِنْت" جرى مثل ذلك من الحذف المقطعي:

ðanantu → ðantu

ظننتُ

↓

س ح+ س ح س+ س ح

ظَنْتُ

↓

س ح س+ س ح

فقد حذف أحد مقاطع الكلمة (س ح)

س ح ← Ø

ومثله ما جرى في "شَمْتُ" بدلًا من "شَمِمْتُ":

Samimtu → Samtu

شَمِمْتُ

↓

س ح+ س ح س+ س ح

شَمْتُ

↓

س ح س+ س ح

س ح ← Ø

لقد تكرر، أعلاه، الحذف للمقطع: "س ح"، وعليه، فقد كان حذف أحد المدغمين تخلصًا مقطعيًا، جرى بحذف المقطع أو باستبدال مقطع بآخر، وفي كلا المظهرين الاقتصاديين مالت اللغة نحو الأسهل والأقل كلفة.

ب- حذف الصامت (التخفيف بالحذف المقطعي):

ويقع هذا الضرب من الحذف بالتخفيف في ما أورده ابن جني في المحتسب من قراءة الحسن الزُهري: "أو كانوا غزًا" خفيفة الزاي، قال أبو الفتح: "وجهه عندي أن يكون أراد غزاةً"، فحذف الهاء إخلادًا إلى قراءة من قرأ "غُزّى"، بالتشديد، ولا يستنكر هذا، فإن الحرف إذا كانت فيه لغتان متقاربتان، فكثيرًا ما تتجاذب هذه طرفًا من حكم هذه" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٧٥).

إن الكتابة الصوتية تكشف عن المحذوف على النحو الآتي:

ɣuzaatan → ɣuzan

فالمحذوف ليس الهاء، وحدها، بل هو المقطع: "س ح ح"، وذلك كما هو مبينٌ، أدناه:

غُزاة

↓

س ح+ س ح ح+ س ح س

غُزا

↓

س ح+ س ح س

وعليه، فإن التخلص من ذاك المقطع إنما هو جنوح من اللغة للاقتصاد بتقليل الجهد المبذول والتكلفة.

وإلى هذا الضرب من الاقتصاد، ذهب الكوفيون، كما حكى أبو الفتح في قوله تعالى: "وإقام الصلاة"، إذ أراد: "إقامة"، وصار المضاف إليه كأنه عوض من التاء (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٤٤).

إن ما جرى، كرة أخرى، هو حذف لمقطع لا لصوت:

ʔiqaamati → ʔiqaami

إقامةِ

↓

س ح+ س ح ح+ س ح+ س ح

إقامِ

↓

س ح+ س ح ح+ س ح

فالمحذوف هو المقطع "س ح"، لا التاء علامة التأنيث، وحدها، لكن ما دفع اللغويين العرب إلى القول بحذف التاء، فحسب، هو النظر في المكتوب دون المنطوق، فالنظر في المكتوب يؤشر على أن ثمة انتقالًا من الشكل "إقامة إلى الشكل "إقام".

ومن الشواهد الشعرية على هذا الضرب من الحذف قول الشاعر (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٤٤):

أبلغ النعمان عني مألُكا

أنه قد طال حبسي وانتظار

وطريق هذا الشاهد عن أبي الفتح، أنه أراد: "مألُكة"، وهي الرسالة، غير أنه حذف الهاء، وهو يريدها، كما قال كثير (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٤٤):

خليلي إن أمُّ الحكيم تحملت

وأخْلت لحيمات العذيْبِ ظلالها

يريد: العذيبة.

وكذلك قول الآخر (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٤٤):

بثينُ، الزمي لا، إنَّ لا، إن لزمته

على كثرة الواشين، أيُّ معون

يريد: معونة، فحذف، وقيل أراد جمع معونة، وكذلك قول الآخر (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٤٤):

- ليوم روع أو فعال مَكْرُمِ

يريد: "مكرمة"، ثم حذف، وقيل أراد جمع مكرمة.

ومن ذلك، ما أنشده ابن الأعرابي للقنابي يمدح الكسائي (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٧٥):

- أبى الذمَّ أخلاق الكسائي وانتحى

به المجد أخلاق الأبُوّ السوابق

يريد: الأبُوة، جمع أب.

ومن كلام العرب قولك: ناحٍ في ناحية، ومألُك في مألُكة (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص١٧٥).

naaĥiya → naaĥin

ناحية

↓

س ح ح+ س ح+ س ح

ناحٍ

↓

س ح ح+ س ح س

فبدلًا من أن تتكون الكلمة من مقاطع ثلاثة متوالية، صارت تتكون من مقطعين، وهو ضرب من الاقتصاد في الكلفة والجهد، أيضًا.

* **اختزال الحركة:**

وقد أورد عليه ابن جني قراءة أبي حيوة: "في الحَفِرة"، قال أبو الفتح: "وجه ذلك أن يكون أراد "الحافرة"، كقراءة الجماعة، فحذف الألف تخفيفًا" (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٣٥٠).

إن ما جرى في هذه القراءة إنما هو اختزال وليس حذفًا، وهو ما تكشف عنه الكتابة الصوتية:

ĥaafirat → ĥafirat

aa → a

فقد اختزلت الفتحة الطويلة لتكون فتحة قصيرة، لكن ما دفع أبا الفتح للتحليل على أن ما جرى هو حذف للألف، النظرُ في الكتابة، فالناظر في المكتوب يلحظ ذلك التحول في الشكل الكتابي من "الحافرة" إلى "الحفرة"، إذ فقدت الكتابة بتحولها ذاك "الرسم الكتابي للألف"، يضاف إلى ذلك أن اللغويين العرب الأقدمين يفترضون أن ثمة حركات قصيرة تقبع قبل الحركات الطويلة (الألف والواو والياء)، وعليه، فإن الفتحة القصيرة في "الحَفِرة" كانت موجودة قبل الألف (الفتحة الطويلة) في "الحافرة".

إن ما يؤشر عليه الأقدمون من أن، ثمة، حركات قصيرة قبل الحركات الطويلة، إنما ينبع من النظر في ما هو مرسوم في الكتابة، إذ الكتابة العربية تثبت رسومًا للحركات القصيرة قبل الحركات الطويلة، فتظهر الضمة قبل الواو والفتحة قبل الألف والكسرة قبل الياء، والرسم على هذا النحو إرث ورثته الكتابة العربية عن الكتابة السريانية (أبو عيد، ٢٠٠٦، ص٢١٦)، وأما الواقع الصوتي فيشي بأن هذه الحركات لا وجود لها في تلك المواضع، وعليه، فإن الفتحة القصيرة في "الحَفِرة" إنما هي الألف (الفتحة الطويلة) بعد اختزالها. ومثل ذلك ما جرى في قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام وعروة بن الزبير وأبي جعفر ومُحَمَّد بن علي وأبي عبد الله جعفر بن مُحَمَّد (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٣٢٢-٣٢٣).

- ونادى نوحٌ ابنَه.

قال أبو الفتح: "أما "ابنَه"، فإنه أراد: ابنها، كما يروى عن عروة فيما قرأ: "ابنها"، يعني ابن امرأته، لأنه قد جرى ذكرها في قوله سبحانه: "وأهلك"، فحذف الألف تخفيفًا، كقراءة من قرأ: :يا أبتَ"، قال أبو عثمان، يريد: أبتاه" (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٣٢٢-٣٢٣).

إن حقيقة ما جرى تمثله الكتابة الصوتية على نحو من:

ʔibnahaa → ʔibnaha

aa → a

وبالتمثيل المقطعي، فإن ما جرى هو تحول من المقطع: (س ح ح) إلى المقطع (س ح)، وهو لا شك انتقال من الأكثر كلفة وجهدًا إلى الأقل بالاختزال الحركي، وهو مظهر للاقتصاد اللغوي اشتمل على ضرب من الاستبدال المقطعي:

س ح ح ← س ح

وبرغم أن المقطعين: (س ح) و(س ح ح) مقطعان مفتوحان (الشايب، ٢٠١٢، ص١٨٠)، إلا أن المقطع (س ح) يبقى المقطع الأسهل والأكثر تكرارًا (إيلوار، ١٩٨٠، ص٣٠-٣١)، وعليه، مالت القراءة الشاذة لهذا الضرب من الاستبدال المقطعي.

والاختزال الحركي هو ما جرى في قراءة مماثلة، هي قراءة يحيى والأعمش وطلحة بن مُصَرِّف وما روي عن أبي عمرو "من القَنِطين"، قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون في الأصل: "القانطين"، كقراءة الجماعة، إلا أن العرب قد تحذف ألف فاعل في نحو هذا تخفيفًا (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٥).

qaanitiin → qanitiin

aa → a

وجوز أبو الفتح أن تكون نحوًا من ذلك قراءة علي وزيد بن ثابت وأبي جعفر مُحَمَّد بن علي والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جماز "لَتُصيبنَّ" في قراءة العامة:

- لا تُصِيبنَّ، إذ حذف الألف، تخفيفًا (ابن جني، ج١، ١٩٦٩، ص٢٧٧-٢٧٨).

إن ما جرى، ثمة، أن الناطق اللغوي، ومن باب الاقتصاد بالجهد، تعامل مع التركيب: "لا تُصيبن" على أنه كلمة واحدة، والكلمة، هنا، مصطلح كتابي، فصار التركيب "لَتُصيبن"؛ ويُمثل ذلك في الكتابة الصوتية:

laatusiibanna → latusiibanna

aa → a

وكانت وفرة من الشواهد الشعرية جاءت على هذا النحو من تقليل الجهد والاقتصاد في الكلفة، وذلك باختزال الحركة الطويلة وتحولها إلى حركة قصيرة، وذلك من مثل (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٥-٦):

- أصبح قلبي صَردا
لا يشتهي أن يَرِدا
إلا عَرادًا عردا
وصلّيانًا بَرِدا
وعنكثًا ملتبدا

يريد: عاردًا وباردًا، فحذف الألف، تخفيفًا.

ومن ذلك، الاختزال في الضمة الطويلة، طلبًا للاقتصاد، كما في قول الراجز (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٨):

- إن الفقير بيننا قاضٍ حكم
أن يرد الماء إذا غاب النُجُم

يريد: النجوم.

ومنه قول الأخطل (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٨):

كلمع أيدي مثاكيل مُسَلَّبَةٍ
يندبن ضرْس بنات الدهر والحُطُبِ

يريد: الخطوب.

xutuub → xutub

uu → u

ومما ورد على ذلك من كلام العرب قول أبي بكر في "أُسْد" إنه مقصور من أسود، فصار أُسُد، ثم أسكن، فقال: أُسْد (ابن جني، ج٢، ١٩٦٩، ص٨).

ʔusuud → ʔusud

uu → u

وبعد، فقد خلصت الدراسة من تناولها لثلاث من الظواهر اللغوية الصوتية إلى أن المظاهر الاقتصادية المتحكمة بالتغيرات في هذه الظواهر إنما تتحدد بمظهرين أساسيين: الاستبدال المقطعي والحذف المقطعي، مع التنبه لما ينطوي عليه هذان المظهران من تباينات متعددة.

* **نتائج الدراسة:**

خلصت الدراسة من تناولها للمظاهر الاقتصادية في ثلاث من الظواهر اللغوية الصوتية في القراءات القرآنية الشاذة في محتسب ابن جني إلى مجموعة من النتائج، لعل أظهرها:

- اشتملت الظواهر اللغوية الثلاث المدروسة على مظهرين اقتصاديين أساسيين: الاستبدال المقطعي والحذف المقطعي.
- انطوى المظهران الاقتصاديان: الاستبدال والحذف على غير حذف وعلى غير استبدال.
- تكرر حذف المقطعين: القصير المفتوح: (س ح) والطويل المفتوح (س ح ح).
- استبدلت القراءات القرآنية الشاذة في محتسب ابن جني المقطعين: القصير المفتوح (س ح) والمتوسط المفتوح (س ح ح) بالمقطعين المغلقين: المتوسط (س ح س) والمديد (س ح ح س).
- جاء التخلص من التقاء الساكنين تخلصًا مقطعيًا، إذ استبدل الناطق اللغوي عن طريقه مقطعًا بآخر.
- إن ما أطلق عليه أبو الفتح "حذف الحركات" إنما جاء اختزالًا للحركات لا حذفًا لها، مع التنبه إلى أن ذلك الاختزال قام باستبدال مقطع بآخر.
- أنجز الاختزال استبدال المقطع (س ح) بالمقطع (س ح ح) واستبدال المقطع (س ح س) بالمقطع (س ح ح س).
- جاء الحذف بالتخفيف استبدالًا مقطعيًا، على الأغلب، في حال حذف أحد المدغمين وحذفًا مقطعيًا في حال حذف الصامت.
- حققت المظاهر الاقتصادية: الحذوف والاستبدالات المقطعية، وفرًا في الجهد وسهولة أكبر في الأداء اللغوي.
- ثمة علاقة لغوية بين القراءات الشاذة والقراءات الصحيحة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ثمة علاقة بين القراءات الشاذة وكلام العرب شعرًا ونثرًا، فالأمثلة المرصودة في القراءات الشاذة تتماثل، لغويًا، وما يرصد في القراءات الصحيحة وفي كلام العرب، وكل تلك الأمثلة، وبغض الطرف عن بعض التباينات الفرعية بينها، إنما تمثل ظواهر لغوية واحدة ذات مظاهر اقتصادية واحدة.
- تبرهن هذه الدراسة وأضرابها الفرضية الأساسية في اللسانيات الاقتصادية، إذ اللغة، في معظم تغيراتها، تنحو نحو الأسهل والأقل جهدًا وكلفة.
- توصي الدراسة بمزيد من المعالجات للمظاهر الاقتصادية في القراءات القرآنية الشاذة، على المستوى الصوتي، وعلى المستويات اللغوية الأخرى، وذلك بغرض الاستكشاف للقوانين المتحكمة بالمظاهر الاقتصادية في اللغة والقراءات.

المراجع

ابن جني، أبو الفتح عثمان. (١٩٦٩)، "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها"، تحقيق: علي النجدي ناصف وعبد الحكيم النجار وعبد الفتاح شلبي، القاهرة.

أبو عيد، محمد. (١٩٩٨)، "الأبجدية العربية في ضوء علم اللغة الحديث"، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

أبو عيد، محمد. (٢٠٠٦)، "أثر الكتابة الأبجدية في تحليل الأصوات الصائتة عند علماء العربية القدماء"، مجلة جامعة قطر للآداب، العدد (٢٨).

أبو عيد، محمد. (٢٠٠٩)، "براجماتية الكتابة العربية، دراسة في اللسانيات الاقتصادية"، مجلة كلية الآداب، جامعة الخرطوم، العدد (٢٧).

أبو الهيجاء، خلدون. (٢٠٠٥)، "فيزياء الصوت اللغوي ووضوحه السمعي"، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، الأردن.

الاستراباذي، رضي الدين. (١٩٨٢)، "شرح شافية ابن الحاجب"، تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي عبد الحميد، القسم الأول، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

إستيتية، سمير. (٢٠٠٥)،، "اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج"، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، الأردن.

إيلوار، رونالد. (١٩٨٠)، "مدخل إلى اللسانيات"ن ترجمة: بدر الدين القاسم، وزارة التعليم العالي، ط١، دمشق.

التميمي، مهدي. (٢٠٠٦)، "أساسيات في اقتصاد اللغة العربية"، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن.

الخولي، محمد علي. (٢٠٠٠)، "مدخل إلى علم اللغة"، دار الفلاح، ط١، عمان.

الخولي، محمد علي. (١٩٩٠)، "الأصوات اللغوية، النظام الصوتي للغة العربية"، دار الفلاح، ط١، عمان.

سوسير، فرديناند دي، (١٩٨٥)، "دروس في الألسنية العامة"، ترجمة: صالح القرمادي محمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ط١، طرابلس.

الشايب، فوزي، (٢٠١٢)، "قراءات وأصوات"، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد.

عمر، أحمد مختار. (١٩٨٥)، "دراسة الصوت اللغوي"، عالم الكتب، ط٣، القاهرة.

غديري، وردة. (٢٠٠٣)، "سمات الاقتصاد اللغوي في العربية، دراسة وصفية تحليلية"، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

كولماس، فلوريان، (نوفمبر ٢٠٠٠)، "اللغة والاقتصاد"، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، العدد (٢٦٣)، الكويت.

معايطة، ريم، (٢٠٠٨)، "براجماتية اللغة ودورهما في تشكيل بنية الكلمة"، دار اليازوري، ط١، عمان، الأردن.

- مكارثي، ميشيل. (٢٠٠٥)، "قضايا في علم اللغة التطبيقي"، ترجمة: عبد الجواد توفيق محمد، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة.

Analysis of Economical, Aspects, on phonetic level, in Unfamiliar Quranic Readings in Ibn Jini's Muhtasib: A Modern Linguistic Perspective.

Abstract

This study aims at investigating economical aspects in unfamiliar Quranic readings in Ibn Jini's Muhtasib according to a modern linguistic viewpoint. This study relies on two aspects:

- Economical linguistics
- Modern phonology

Thus, the study examines some linguistic phenomena related to economical aspects and appeared in Muhtasib such as iltiqa' al sakinain, assimilation less, and shorting of vowells.

The study concludes that the investigated linguistic phenomena are all concerned with syllabic elimination where the Arabic language shifted the more complicated syllable by the simpler one; or Arabic deleted the syllable for the sake of easiness and economy in language use.

Key words: (Economical, Sound, Quranic Reading, Muhtasib, Ibn Jini, Linguistics).